منهجية البحث اللغوي عند النحاة واللغويين والمفسرين:
دراسة نقدية

أ.م.د. جواد اصغرى أ.مشارك.د.عدنان طهماسبى
جامعة طهران

The Methodology of Linguistic Researches between Grammarians, Lexicographers and Commentaries: A Critical Research

Ass.Prof.Dr. Jawad Asgari Ass.Prof.Dr. Adnan Tuhmasabi
Tehran University
jasghari@ut.ac.ir adnant@ut.ac.ir

Abstract

This paper aims at criticizing research methods of Muslim grammarians, lexicographers and interpreters. In this paper, it is explained that how grammarians wrongly travelled the path of linguistic researches and kept aloof from principles pertinent to research in the field of language under the influence of Aristotelian logic and mixed syntax with the science of logic, which is not compatible with the spirit of language. Then it is explained that how these researches influenced lexicographers and finally which scientific heritage was converted to the research tool of the Quran's interpreters. In this paper, the understanding of the Quran's interpreters of the language of this noble book is questioned. To substantiate this claim, lexical structure and grammar of Hebrew and Aramaic languages are used in this paper.

Keywords: Hebrew, Aramaic, Arabic, Interpretation of the Quran

الملخص:

هذه المقالة تنقد مناهج البحث عند النحويين واللغويين والمفسرين المسلمين وتبين انه كيف اخطأ النحويون المسير نحو البحوث اللغوية، ومتاثراً بالمنطق الارسطى بعدوا عن مبادىء البحوث اللغوية ومزجوا النحو بالمنطق الذى لا يتناسق وروح اللغة، ثم اننا بيّنا ان هذه البحوث كيف أثّرت فى اللغويين وآثارهم وإنّ اى تراث علمى اصبح اداة لبحوث المفسرين ومحاولاتهم، والاشكالية المطروحة فى هذه الورقة هى كيفية فهم المفسرين من المصحف الشريف، ولإثبات هذا الادعاء ارتشفنا من بنيات صرفية ونحوية للغتين العبرية والآرامية.

المقدمة

منذ بزوغ الاسلام مرّت اللغة العربية بمراحل وسجلت تطورا فى ارساء قواعدها وفانبرى العلماء والباحثون فى غناها فى مختلف المجالات فكريا وثقافيا ودينيا وعلميا بعد نزول القرآن الكريم واغترفوا من معينها للتعبير عن افكارهم، هذا وإنّ الكثير منهم جعلوا اللغة العربية هدفاً لتحقيقاتهم وبحوثهم وبذلوا مهجهم دون ذلک.

كان هدف هؤلاء العلماء اولاً الفهم الصحيح من اللغة العربية، ثم انهم كانوا بصدد بناء قواعد نحوية يمكّنهم من استخدامها فى صراعاتهم الدينية والكلامية، كما أنّ وجود تيارات فلسفية وكلامية ومنطقية والجدل الدائر بينهم المتمثل باللغة والكتابات العربية أدخل هذه اللغة فى حلبة صراع فكري بين هذه العلماء، وكانت غالبية هذه الصراعات باللغة العربية، تشتعل على يد من كان منحدرا من اصول غير عربية حيث لم يتشربوا بروح اللغة والثقافة العربية بكامل وجودهم. فانعدام المعرفة الكاملة بالثقافة العربية وخاصة عدم معرفتهم شبه الكاملة بالثقافات واللغات السامية وامتزاج الثقافتين الاغريقية والايرانية بالثقافة العربية زاد الطين بلّة لينحرفوا بحثيا ويسلكوا مسلكا علميا مشبوها بالاخطاء.

فالورقة هذه تتطرّق الى جملة من هذه الأخطاء المنهجية وعواملها وتداعيات هذه الأخطاء التى ظهرت بين النحاة واللغويين، والمتجسدة فى اعمال المفسرين المتقدمين منهم والجدد، والفرضية التى نحن بصدد إثباتها هى اننا نشاهد بين النحاة واللغويين والمفسرين اخطاء منهجية وأثرت هذه الأخطاء فى فهمهم عن القرآن كريم.

منهجية البحث

ولما أنّ الهدف الأساس فى هذا البحث هو الكشف عن كيفية فهم النحاة واللغويين والمفسرين من اللغة العربية ولغة القرآن الكريم خاصة وظهور هذه العلوم بعد نزول القرآن الكريم، فاخترنا الامثلة بكاملها من المصحف الشريف.

وفى هذا المقال ولدراسة اعمال هذه الفرق الثلاث من العلماء المسلمين اخترنا آثاراً من علماء القرون الأسلامية، الأولى منها والوسيطة والمعاصرة، ذلک أنّ الأعمال المكتوبة فى هذه المجالات كثيرة للغاية، ناهيک إنّ فى كل هذه المجالات هناک من يؤثر على الآخرين ويُعتبر رائداً وقدوة لهم والآخرون انتهجوا نهجهم أو كررّوا كلماتهم دون ادنى تغيير.

فعليه ومن بين كمّ هائل من الأعمال النحوية، اخترنا شرح المفصل لابن يعيش اذ انه الأكمل (حسبنا) من بين الكتب النحوية والجامع لآراء النحويين القدماء، ثم كتاب شرح الشافية لابن الحاجب على الكافية للرضى الاسترآبادى واخيراً شرح ابن عقيل على الفية ابن مالک من بين النحويين المتأخرين على ما ذهبنا عليه.

و من بين كتب اللغة استخدمنا اساساً لسان العرب اذ انه جامع آراء مختلف اللغويين القدماء، وقلّما جاء علماء اللغة بعده بجديد، كما اننا تطرقنا الى كتاب الراغب الأصفهانى وهو «شرح مفردات غريب القرآن» الذى استند اليه الكثير من المفسرين. ومن بين كتب التفسير اغترفنا من «جامع البيان عن تأويل آى القرآن» المعروف بتفسير الطبرى والذى يعتبر اول تفسير جامع فى العالم الإسلامى ومن تفسير الكشاف للزمخشرى ومن تفسير الميزان للعلامة الطباطبائى من بين المعاصرين.

العربية واخواتها السامية

هنا نشير الى قضية تناولها الكثير من العلماء المعاصرين وتعدّ اليوم لدينا قضية معروفة نسبياً غير أن النحاة واللغويين القدماء لم يحتفلوا بها. إن اللغة العربية وليدة تكامل اللغات السامية، وماهية اللغة السامية الأصلية غامضة لنا إلا أنّ مسيرة تكامل هذه اللغات ابقت لنا فى العصر الراهن لغتين: العبرية والعربية. وكما قال الباحثون، لا شکّ انّ العربية تعتبر احدث لغة بين اللغات السامية ومضت عليها تحولات كثيرة، وعلى اساس البحوث التى اجراها هؤلاء العلماء والباحثون تعدّ الآرامية اقدم من العربية والعبرية وهاتين الأخيرتين تأثرتا بالآرامية. وما يحصل من هذه المصادر هو ان شمالى الجزيرة العربية كان مجالاً للتلاقى والامتزاج والمثاقفة بين العربية والآرامية، واللغة الآرامية كانت منذ الالفية الثانية قبل الميلاد قد بلغت مراحل نضجها وازدهارها ولكن العربية أخذت تنشأ وتترسخ من القرن الرابع قبل الميلاد ثم انها بعد ظهور الإسلام وبعبارة فى القرن السابع للميلاد بلغت اوج ازدهارها. هذا مسار تكامل اللغة العربية ولا يسعنا التطرق الى هذا الموضوع.

ولكن التحول الذي حدث فى هذه المرحلة التاريخية وساهم فى البحوث اللغوية هو ظهور الإسلام والإتجاه الأيديولوجي فى البحوث اللغوية التي كانت مندمجة مع العلوم الإغريقية والمسيحية. ولفهم هذا التحول وانماط البحوث والدراسات اللغوية فى ذلک العصر، بداية ننظر الى نشأة النحو:

نشأة النحو

و الحدث الهام الذى ظهر فى تاريخ اللغة العربية هو نشأة النحو بعد نزول الإسلام. ذلک ان صناعة اللغويين والنحاة قد قولبت بدورها العقل الذى يمارس فعاليته في هذه اللغة وبواسطتها، العقل العربى الذى تفرسه الثقافة العربية فى المنتمين اليها. ذلک ان عمل النحاة لم يكن مقتصرا على استنباط قواعد اللسان العربي من كلام العرب بل كان فى الواقع تقنينا لهذا الكلام وتحجيما له بواسطة قوالب اعتبروها مطلقة ونهائية .

كانت هذه بداية للخروج عن الطريق القويم لمناهج الدراسة اللغوية، فالنحويون والذين كانوا غافلين عن اللغات السامية ولم يكن لديهم عنها معلومات تذكر (الا المتاخرين منهم والذين ما كان لهم تاثير ملحوظ فى هذا المجال امثال السيوطى والجواليقى) حاولوا ان يحصروا النحو فى اطار خاص حتى يمكّنوا الآخرين من معرفته الا انهم فرضوا على اللغة العربية قواعد وقوالب اسفرت عن الضعف فى فهمهم من العربية، والذين كان لهم دور مفصلى فى هذا المجال هم بعض النحاة الذين كانوا أعاجم والذين لم يتثقفوا بثقافة العرب، فلذلك فرضوا ما يدور فى خلدهم من افكار ومعارف على المجالات اللغوية بسهولة ودون وازع وخوف من تداعيات هذا الأسلوب وتاثيره على البحوث اللغوية. انهم كانوا جادّين آنذاك فى العمل على تقنين اللغة والنحو انطلاقاً من اصول واضحة محددة – الخليل وسيبوية خاصة – تمكن من اغلاق النسق اللغوى اغلاقاً محكماً ولا تسمح بأى جديد الا ذلك الذى يجد له اصلاً داخل النسق ثم انهم كانوا ناجحين فى مهمتهم هذه بحيث ان هذا الأمر دعم الإحساس بقداسة اللغة نفسها وقلّل من الإحساس بما يمكن ان يحدث فيها من تطور وتغير وما استشعر اللغوى التغييرات الجذرية فى الذوق ..بل ظل عاكفاً على مادته القديمة والسبب انهم كانوا جميعاً فى عصر واحد عصر التدوين .. وفى هذا الفضاء المقولبة علمياً، كان النحاة يبحثون عن الرقى والتكامل فى مجالهم العلمى، فى الطرق والمناهج العلمية السائدة آنذاك.

و فى عصر التدوين كان العلماء فى مختلف المجالات متأثرين ببعضهم الا ان الجدل الكلامى طغى بين المعتزلة والاشاعرة فتسنّم علم الكلام بمكانة خاصة فى الاوساط العلمية فمن الطبيعى ان يتأثر النحاة بالكلام والمنطق الأرسطى وقد جاء عن سيبويه انه تلقّن دروسه الأولى من اهل الثقافة الدينية اذ التحق بحلقات الفقهاء والمحدثين ولزم حلقة حماد بن سلمة بن دينار المحدث المشهور حنيئذ.

هذا وإن علماء العلوم المختلفة الذين كانوا متنافسين معاً اخذوا اللغة العربية كمقدمة للدخول فى المجالات العلمية والدينية كالكلام والفقه وبالتالى كانت اللغة العربية تمثّلُ دور اداة او وسيط فى هذه الحلبة، فاساتذة النحو او من يدرّسه الى جانب العلوم الدينية قاموا بانقاذ النحو من الهامشية. «فكان رد فعل النحاة تجاه هذا المازق على شكلين مختلفين يكمل احدهما الآخر. من ناحية تمّ بذل الجهد لوضع النحو فى نظرية وصفية منظمة مبنية على قواعد ومبادىء عامة مصرّح بها، بحيث يتمّ وضع كل نوع من انواع المادة فى مكانه ورتبته الصحيحين ومن ناحية اخرى حاول النحاة ان يوضحوا بطريقة جذابة وذات معنى للقراء المعاصرين بعض المفاهيم العميقة التى اثرت على رؤيتهم عن كلام العرب وكان يطلق على هذه الطريقة اسم «العلل». والتحول الآخر الذى برز فى مجال النحو على اساس نظرية العلل، كان ظهور «القياس النحوى» الذى قادها ابن جنى وابوعلى الفارسى فى مدرسة بغداد النحوية.

و عن كيفية تأثر النحو بمنهج العامل والمعمول والقياس المنطقى يجب ان نشير الى تأثر العلماء المسلمين بالكتب الاغريقية والعلماء المسيحيين الذى كانوا نشيطين غاية النشاط فى عصر التدوين.

فى الاقسام الثلاثة التالية للورقة نتطرق الى كيفية تأثير هذه الافكار على أداء النحويين واللغويين والمفسرين مع ذكر بعض المصاديق والأمثلة لها.

النحويون

و عند دراسة محاولات ونشاطات العلماء المسلمين بداية ينبغى لنا ان نتناول انتاجات النحاة اذ انهم كانوا رائدين للغويين والمفسرين تاريخياً وفى اختيار المناهج. كان النحاة يرون ان الاسم والفعل لاجرم ناشئان من اصل ثلاثى فما فوقه وان وجد اسم او فعل ثنائى فلا شک انه حذف حرف واحد منه على الأقل كما ان هذا المحذوف يظهر فى صيغ التكسير او التصغير نحو أب آباء. فعلى سبيل المثال انهم كانوا يعتقدون ان اصل مفردات کـ «أب وأخ وابن ويد ودم» كان: «أبو وأخو وبنو ويدو ودمو». كما انه كانت بينهم نزاعات لانهاية لها حول كلمة «اسم» اذ ان بعضهم يعتبرونه من مادة «وسم» والآخرون من مادة «سمو».

و حول الضمائر فللغويين آراء غير واقعية، فإنهم كانوا يرون ان الاصل فى «أنا وانت وانتما وانتم وانتن» هو لفظ «أن» والحروف التى جاءت بعده تاتى بهدف الاختلاف والتمايز بينها وبين «أن» الناصبة او جاءت كحرف المخاطبة. ثم انه كانت لهم آراء عجيبة حول اسماء الاشارة اذ انهم كانوا يعتقدون ان الهاء فى بداية المفردات كـ «هذا وهذه وهؤلاء»، هى حرف التنبيه واصلها «ذا وذه وأُلاء».

و مثال آخر عن اخطاء النحاة هو آراؤهم عن كلمة «اللهمّ» اذ نرى فى كتب النحاة البصريين انه عندما يقع لفظ «الله» موقع النداء فمن الممكن ان يحذف «يا» من بدايته ويضاف ميمٌ مشددةٌ الى آخره، وذهب الكوفيون الى ان هذا اللفظ خلاصة لجملة: «يا الله أمّنا بالخير».

نقد منهج النحاة القدماء

و فى الحقيقة كان النحاة اول طائفة من علماء اللغة العربية الذين تأثروا بالمنطق الأرسطى واقحموه فى مجال الدراسات اللغوية وحرفوا مسيرتها الى طرق غير صحيحة. وللحصول على تعريف منطقى عن بنية الاسم، افترضوا انه متكون من ثلاثة احرف على الأقل وهذا الحكم المنطقى ادى الى اعتقادهم بأن كل اسم ثنائى له حرف آخر محذوف الا انهم كانوا غافلين عن ان مفردات كـ «أب وأخ ودم وابن واسم» هي متأصلة فى اسماء اللغات السامية اذ انها فى العبرية استخدمت على نحو: «אב- אח- יד- דם- בן- שם » (= أو، أخ، ياد، دم، بن، شم) وفى الآرامية على نحو: «ܐܒܐ - ܐܚܘܢܐ - ܐܝܕܐ - ܕܡܐ - ܒܪܘܢܐ - ܫܡܐ» (= أَوَ، أَخُّونَ، إيدَ، دِمَّ، برُونَ، شِمَّ) وحتى ان استخدم شاعر كلمة «الإسم» فى شعره بصورة ثنائية اعتبره النحاة ضرورة شعرية ويرونه ظاهرة نحوية شاذة وأنّه لا تستخدم مفردة فى العربية بتلك الصورة التى تركته لنا اللغات السامية الاكثر قدماً، وهذا لايتناسق والواقع اللغوي:

«باسم الذى فى كل سورة سِمُهُ»

انهم كانوا لايعرفون انّ «أنا وانتما وانتم وانتنّ» يستخدم فى العبرية على نحو: «אני- את- אתם- אתן » (= أني، أتّ، أتِّم، أتِّن) وفى الآرامية على نحو: «ܐܢܐ - ܐܢܬ - ܐܢܬܘܢ» (= أنا، أنت، أتّون) وتلك المحاسبات المنطقية الشبيهة بالرياضيات عن اللغة وهمٌ ليس الاّ، وهذه المفردات فى الحقيقة هى مفردات سامية الاصل التى استخدمت فى العربية. ولو كان النحاة عارفين بكلمة «אלוהים» (= إلوهيم) لن يجرى على لسانهم هذا الكلام العجيب حول «اللهمّ». انهم كانوا لايدرون ان فى العبرية يظهر حرف التعريف ה (= هـ-) مع اسماء الاشارة ايضاً ويكوّن مفردات הזה (= هَزِّه) و האלה (= هَإلِ) ودخلت هذه الأسماء فى العربية بهذه الصور بعينها اي «هذه» و «هؤلاء».

هذا وإن النحاة سقطوا فى غمرة اخطاء فادحة حول القضايا النحوية والبنيات اللغوية لكننا لانتناولها هنا اذ لاترتبط بما نحن فيه.

و اليک ايها القارئ الكريم نشرح كيف اثّر هذا المنهج غير السديد على اعمال اللغويين.

اللغويون

كان اللغويون وبسبب استخدامهم مناهج علم المنطق الموروث عن النحاة، قد يقعون فى اخطاء اذ انهم وبالاستفادة من منهج «معرفة اصل الكلمة» والانصراف الى منهج «القياس المنطقى» فى الوصول الى معنى المفردات، كانوا يصلون الى طريق مسدود وبالتالى يقدمون معانى غير حقيقية عن الكلمات. ذلک بانهم كانوا يعتقدون ان لكل كلمة اصل ثلاثى او رباعى. فهم عندما واجهوا كلمة «الرحمن» قاموا بالبحث عن اصلها وزعموا انها جاءت على صيغة المبالغة على وزن فَعلان ومن اصل «ر ح م» الا انهم لم يجيبوا عن هذا السؤال: لماذا لا يوجد من هذا الكلمة فى هذه الوزن صيغتها المؤنثة أى «رَحمى» كـ «سكرى» او «رحمانة» كـ «يقظانة»، او لِمَ لاتوجد هاتان الصيغتان المؤنثتان فى الشعر الجاهلى او القرآن الكريم. كما انهم لم يردّوا لماذا تُكتب الكلمة هذه بالالف المقصورة دوماً؟

و فى عملية ترجمة هذه الكلمة، وبدلاً عن استخدام مناهج علمية لغوية جرى على لسانهم اقوال ايديولوجية ودينية ونشاهد فى كتبهم اللغوية جمل حول القيم الإسلامية والتى فهمها اصعب بكثير من فهم معنى كلمة «الرحمن» اذ يقول خليل بن احمد فى معجم العين عن «الرحمن والرحيم»: «اسمان مشتقان من الرحمة ورحمة الله وسعت كل شىء وهو ارحم الراحمين».

ويقول ابن منظور فى لسان العرب ذيل مادة ر ح م عن كلمة الرحمن: :«بنيت الصفة الأولى على فعلان لأن معناه الكثرة وذلك لأن رحمته وسعت كل شىء وهو ارحم الراحمين».

و فى الحقيقة علينا القول ان هذه الكلمة لاترتبط بوزن «فعلان – فعلى» بصلة، اذ انها استخدمت فى كل اللغات السامية خاصة فى اللغات المستخدمة فى الأديان الحنيفية، كواحدة من اسماء الله عزّوجلّ حيث توجد فى العبرية والآرامية ما يعادلها: רחמן (= رَخمِن) وܡܪܚܡܢܐ (= مرَخمِنَ) وبعد دراسة صوتية حول هذه الكلمة يظهر لنا سبب كتابتها فى العربية بالالف المقصورة.

هذه الكلمة لا توجد فى التورات ولكن استخدمت فى انجيل لوقا اصحاح 6 الآيه 36.

هنا نتطرق الى ثلاثة مفردات وهى: «باءَ وسِفر ويَمّ». هذه المفردات بالنسبة الى مرادفاتها اى: «جاء وكتاب وبحر» تبدو اكثر غرابة واقلّ توظيفاً، ولهذا لقد حاول النحاة ان يستوعبوا معناها الحقيقى، غير انهم استخدموا مرة اخرى منهج «معرفة اصل الكلمة» و«القياس المنطقى»، فاعتبر بعضهم كلمة «السفر»، «الكتاب الكبير» وبعض آخر «الكتاب الذى يُسفر عن الحقائق» وعن كلمة «يمّ» يعتقد كثير من اللغويين ان معناها «البحر الذى لايدرک قعره ولاشطآه» وقد جاء فى لسان العرب حول كلمة «باء»: «احتمل الذنب وصار المذنب مأوى الذنب» وقد قال الراغب الاصفهانى فى «المفردات»: :«اى حلّ مبوّأً ومعه غضب الله واستعمال باء تنبيهاً على ان مكانه الموافق يلزمه فيه غضب الله فكيف غيره من الامكنة؟»

غير ان كلمة «يمّ» دخلت فى القرآن الكريم لتعبّر عن نهر النيل فاللغويون كيف ظنوا انّ «اليم»، بحرٌ لايدرک قعره ولاشطآه؟ كما ان المزج بين فعل «باء» و«الاثم» خطأ وكلمة مبوّأً لاترتبط بهذا الفعل، من جهة ثانية لقد قاس اللغويون كلمة «السفر» مع فعل «اسفر» فظنّوه «كتاباً يُسفر عن الحقائق» لكن الحقيقة تختلف، اذ ان المفردات الثلاث المذكورة ليست عربية اصلاً ونحن نرى ان الله سبحانه وتعالى استخدم المفردات السامية الأقدم وهى مفردات عبرية وآرامية اذ أن سياق النص الذى احتوى على هذه المفردات يرتبط بقصص الأقوام السامية قبل العرب فى شبه الجزيرة وهم بنو اسرائيل وموسى (ع) والله عزّوجلّ من خلال هذا يرمز لمخاطبيه العرب واليهود الى ان القرآن من جانب معبود واله ابراهيم والذى جاء وعده عن بعثة نبى الاسلام فى التورات والانجيل، وبعبارة ادق لافرق بين جاء والبحر والكتاب من جهة وباء واليمّ والسفر من جهة ثانية.

المفسرون

و حصيلة هذه النشاطات والمحاولات العلمية عند النحويين واللغويين كانت مادة اولية للمفسرين لفهم القرآن الكريم وتفسيره، اذ كان النحو العربى ومعرفة اللغة من اعمق الأدوات اصالة، لهذا الأمر فالمفسرون الذين كان جمهورهم من غير العرب كانوا ينصرفون الى تعلم العربية فى بداية مسيرتهم العلمية ثم انهم وللقضاء على مشاكلهم فى فهم النص والمفردات الغريبة كانوا يعتمدون على المعاجم ويتوقف فهمهم عليها، فهذا التراث العلمى والإنتاجات العلمية التى دخلت فى الثقافة الاسلامية على اساس المنهج الارسطى، تخلل الى علم التفسير مباشرة او غير مباشرة. فالمفسرون قاموا بعملية فهم لغة القرآن من خلال علم النحو الذى كان متاثراً بالمنطق الأرسطى مخلفا بعض النقائص فى عملية تفسير القرآن. والآن نسلط الضوء على بعض هذه المشاكل.

معنى كلمة «المثانى»

هنا لا نهدف الوصول الى معنى «المثانى» فى القرآن الكريم اذ انه عمل صعب للغاية واللغويون والباحثون القدماء وحتى المستشرقون والمهتمّون للبحوث القرآنية ماقدموا رأياً حاسماً في هذه الكلمة، غير انّ نظرة عابرة على آراء المفسرين المسلمين حولها يبيّن لنا نسبة عجزهم فى الوصول الى الفهم الصحيح من النص القرآنى، ظهرت هذه الكلمة فى القرآن مرتين احديها فى سورة الحجر الآية 87 والثانية فى سورة الزمر الآية 23.

يرى الزمخشري في الآيتين احتمالين حول كلمة المثانى، احده هو ان الكلمة هذه مأخوذة من «التثنية» والآخر ان تكون مأخوذة من «الثناء» ناهيک انّ الراغب الاصفهانى يذهب الى ما ذهب اليه الزمخشرى.

الا اننا نرى الطبرى بوصفه اول من ألّف تفسيراً جامعاً للقرآن الكريم، وبعد نقل آراء مختلفة حول هذه الكلمة ذيل الآية 87 من سورة الحجر، يستند الى حديث صحيح عن النبى الأكرم (ص) فيقول ان الكلمة تلک، رمز للآيات السبع لسورة الفاتحة .

و العلامة الطباطبائى عند تفسير الآية بذاتها يقدم نفس الرأى فى ميزانه والغريب هو انّ الاخيرين عند بيان معنى هذه الكلمة فى الآية 23 من سورة الزمر لايستندان الى ذلک الحديث النبوى (ص) وينتهجان نمط القياس المنطقى و«معرفة اصل الكلمة» .

ان غالبية المفسرين ان لم نقل جميعهم وحتى الذين ينادون بالتفسير الروائى، عند مواجهة الآيات القرآنية يحاولون اولاً ان يشرحوا النص ثم ينصرفون الى الاخبار والاحاديث الا ان مفسراً كالعلامة الطباطبائى الذى نادى بتفسير القرآن بالقرآن يلجأ الى الأخبار والروايات فى شرح هذه الكلمة. ولكن آراء المفسرين حول هذه الكلمة تكشف انه لا يمكنهم الوصول الى المعنى الحقيقى لها من خلال مناهج بحثية لاترتبط بساحة اللغة ومن خلال استخدام علم المنطق الذى لا يتناسق وروح اللغة. وبالتالى لاسبيل امامهم الا ان يتركوا التحليل المنطقى للغة والانصراف الى كلام النبى الاكرم (ص)، ولا شكّ ان الأخبار والروايات والأحاديث المأثورة عن النبى الأكرم صلاة الله وسلامه عليه وآله عليهم السلام وصحبه المنتجبين تعتبر احدى مصادر التفسير ولكن نحن بصدد نقد المنهج العلمى للمفسرين فى فهم النص وهو القياس ومعرفة جذر اللغة، وعند الكلام عن مفردات قرآنية اخرى سنبين كم ابعدهم هذا المنهج الأرسطى من المعنى الواقعى للمفردات.

معنى كلمة «أبّ»

نظرة الى تفسير هذه الكلمة القرآنية فى الآية 31 من سورة عبس يظهر لنا ان الله سبحانه وتعالى قد استفاد فى القرآن الكريم كلمات كانت غريبة للعرب حتى فى ايام نزول القرآن. وهناک رواية مشهورة حول هذه الكلمة وهى ان الخليفتان ابوبكر وعمر صرّحوا بانهما كانوا لايدريان معنى هذه الكلمة حتى شرحها على بن ابى طالب (ع). ثم ان ما ينبغى الاهتمام به هو كيفية تفسير المفسرين لهذه الكلمة. ان الطبرى بعد ما ينقل هذه الرواية التاريخية كاملة يقول عن الكلمة هذه: «ما تأكله البهائم من العشب والنبات» والزمخشرى عندما يذكر هذه الرواية المشهورة يحذف اجابة على (ع) ويطلب من قارئيه ان يكتفوا بالمعنى الكلى للآية ويجتنبوا معرفة معنى «أبّاً»!

هذا وإنّ الراغب الاصفهانى فى كتابه «شرح مفردات غريب القرآن» الذى عوّل عليه المفسرون المعاصرون، قد انحرف عن المسيرة الراشدة: «الأبُّ: المرعى المتعهِّيئُ للرعى والجر من قولهم أبَّ لكذا اى تهيُّآ أبّاً وإبابةً وأباباً وأبَّ الى وطنه اذا نزع الى وطنه نزوعاً تهيّأً لقصده وكذا أبَّ لسيفه اذا تهيأ لسلّه» .

فكما نلاحظ فانّ الراغب قد شرح هذا الاسم بصورة وصفية كأنّ معناها «المتهييء» للموصوف المحذوف اى: المرعى الأبّ: المرعى المتهييء للرعى. والعلامة الطباطبائى فى تفسيره يعتبر هذه الكلمة «العشب الجاف الذى تأكله البهائم» ثم يروى الرواية تلک بصورة كاملة.

لكن علينا ان نعلم ان الـ «أبّ» كلمة قديمة سامية مشتركة بين العربية والعبرية والآرامية وقد جاءت هذه الكلمة فى التورات فى سفر اشعار سليمان الاصحاح 6 الآيه 11: «אל גנת אגוז ירדתי לראות באבי הנחל לראות הפרחה הגפן הנצו רמנים» اى: «ذهبتُ بين اشجار الجوز حتى أشاهد الاودية الخضراء والاوراق الطرية لأشجار العنب وازهار الرمان». كما نلاحظ ان الكلمة دخلت فى العبرية بمعنى «الخضراء» وقد جاء فى معجم المفردات التوراتية ذيل كلمة אב انّ:

fresh grass, verdure, greenness, sprout, young shoot

و نرى فى معجم الآرامية – العربية حول هذه الكلمة: «الفاكهة الرطبة التى لاقشور لها»

عالم

هنا نصل الى كلمة اخرى قد جاء المفسرون حولها بأقوال غريبة ونقصد من هذه الكلمة كلمة «العالم» الذى ظهر فى الآية الثانية من سورة الفاتحة. ولايخفى ان الطبرى لم يتناول الكلمة فى تفسيره واما الزمخشرى قال حوله: «اسمٌ لذوى العلم من الملائكة والثقلين وقيل كل ما عَلِمَ به الخالق من الأجسام والأعراض» وقد صرّح الراغب الإصفهانى ان «العالم اسم لفلک ومايحويه من الجواهر والأعراض وهو فى الأصل اسمٌ لما يُعلَم، كالطابَع والخاتَم لما يُطبَع به ويُختَم به وجُعل بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالآلة والعالم آلة فى الدلالة على صانعه» . وابرز العلامة الطباطبائى ان «كلمة العالمين جمع عالم ومعناه مايمكن ان يوجد العلمُ بواسطته» .

وسوال راقمي هذه الورقة هو انه لِمَ حاول المفسرون دوماً ان يعدّوا كلمة «العالم» من اصل «العلم»؟ والغريب ان المفسرين ما لاحظوا أنّ «العالم» كلمة جامدة، ووفقاً للنحو التقليدى الذى يعتقدون به ويمارسون النشاطات العلمية بناءاً عليه، لا اصل للكلمة الجامدة. ثم ان الراغب الإصفهانى حاول ان يقيس «العالَم» مع «الخاتَم» على اساس منهج القياس المنطقى.

لكن حرى بنا ان نعلم ان «العالم» صورة عربية ومتكاملة لكلمة من اللغة السامية الأم. هذه الكلمة توجد فى العبرية بصورة עולם (=عُلام) ومعناه «مكان وزمان بلانهاية ابدية ازلية»، وقد دخلت الكلمة هذه فى اللغة الآرامية بصورة ܥܠܡܐ (=علاما) ويعتبر آرثور جفرى عبارة «رب العالمين» القرآنية مرادفاً دقيقاً ل- רבין העולמים (= رابّين هَعُولامين) فى الدين اليهودى .

معنى كلمة «عدن»

نفس المنهج اللغوى اى «معرفة اصل الكلمة الثلاثة» أُستخدم لكلمة «عدن». وفى هذا الإطار ينقل الطبرى روايات واحاديث مختلفة عن الكلمة هذه، ذكر فيها انّ الـ «عدن» عَلَمٌ لنهر او قصر او مدينة فى الجنة ولكن يقول فى الأخير: «عَدَنَ فلانٌ بأرض كذا، اذا اقام بها وخلد بها ومنه المعدن»، وفى الختام يقدم هذا الرأى الغامض عنه: «انه يعنى هذه المساكن الطيبة التى وصفها جلّ ثناؤه».

وقد ذكر الراغب الإصفهانى فى مفرداته: «عَدن: أى استقرار وثبات وعدن بالمكان كذا استقرّ، ومنه المعدن لمستقر الجواهر» .

وقد جاء فى تفسير الميزان ان «كلمة «عدن» مصدر ومعناه الإستقرار والثبات ويقال مثلاً فلان عَدَنَ بالمكان ولذلک معناه جنات عدن الى جنات باقية خالدة غير فانية .

الا ان الزمخشرى ومستنداً الى رواية ابى الدرداء عن النبى الاكرم(ص)، ينقل معنى عن الكلمة يعبر عن حقيقتها، فى هذه الرواية ذكر الـ «عدن» كاسم عَلَم لمكان فى الجنة، ولو كان المفسرون عارفين باللغة العبرية والآرامية ويقرأون التورات بهتين اللغتين لوجدوا ذلک المعنى الذى جاء فى الرواية النبوية، فان «عدن» اسم مكان فى الجنة جاء فى التورات العبرية اللغة بصورة: עדן (= عدن) والتورات الآرامية اللغة بصورة ܥܕܢ (= عدن)

معنى كلمة «امر»

و قد جاء كلمة «امر» فى القرآن الكريم على ثلاثة معان مختلفة، انه فى بعض الآيات (كالآية 210 من سورة البقرة) بمعنى الطلب وفى بعض آخر يعنى الحال والشأن (كالآية 31 من سورة يونس)، والمعنى الثالث لهذه الكلمة فى القرآن الكريم هو «الوحى» ونجده فى هذه الآيات على سبيل المثال: «يتنزل الأمر بينهنّ لتعلموا» (طلاق، 12) و«يدبّر الأمر من السماء الى الأرض» (سجدة، 5) و«ثم جعلناك على شريعة من الأمر» (جاثية، 18)؛ «امر» كلمة سامية عتيقة معناه الأول «الكلام والمحادثة» وبقيت هذه الكلمة على ذلك المعنى فى اللغة العبرية والآرامية ثم تحول معناه فى العربية الى الطلب والحكومة والشأن والخ، ولكن قد نرى فى القرآن الكريم انه استخدم كلمة «الأمر» فى ذلك المعنى الأول واراد الله سبحانه وتعالى منه، الكلام الإلهى او «الوحى».

وقد اكتفى الطبرى والزمخشرى فى تفسيريهما بمعنى الطلب وقال الراغب الاصفهانى فى ترجمته: «الأمرُ: الشأنُ وجمعه أمور».

و قد جاء فى تفسير الميزان عن الآيه 12 من سورة الطلاق: «و المقصود من كلمة الأمر هنا هو الأمر الإلهى الذى تفسّره الآية الكريمة انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ويقول ان الأمر الإلهى هو كلمة الايجاد» .

و فى تفسير الكلمة هذه فى الآيه 5 من سورة السجدة يقول العلامة الطباطبايى: «المقصود من هذه الكلمة فى هذه الآية الشأن لا الأمر المقابل للنهى» .

معنى كلمة «بور»

قد جاءت كلمة «بور» فى ختام الآيتين بصورة واحدة: «و كنتم قوماً بوراً» (فتح، 12 وفرقان، 18)

يقول الطبرى فى تفسير هذه الكلمة: «و كانوا قوماً هلكى، قد غلب عليهم الشقاء والخذلان» . ويقول الزمخشرى: «و البور من بار، كالهلك من هلك... ويجوز ان يكون جمع بائر، والمعنى: وكنتم قوماً فاسدين فى انفسكم وقلوبكم ويناتكم لا خير فيكم، او هالكين عندالله مستوجبين لسخطه وعقابه» . ويقول الراغب: «البوار فرط الكساء ويقال بار الشىء يبور بَوراً وقومٌ حورٌ بورٌ وقوماً بوراً اى هلكى جمع بائر» .

و جاء فى الميزان ان بور جمع بائر بمعنى هالك .

فخطأ المفسرين فى فهم معنى كلمة «بور» ناتج عن استخدامهم منهج القياس المنطقى الأرسطى واستنادهم الى اقوال اللغويين اذ انهم قاسوا «بور» مع كلمة «بوار» فى الآيه 28 من سورة ابراهيم فانتهوا الى ان «بور» ايضا بمعنى الهالك، ولكن بهذا المعنى الذى حصلوا عليها يظهر تناقض فى ترجمتهم للآية الكريمة ثم انهم تجاهلوا هذا التناقض او حاولوا تبريره فى افكارهم. فإذا غضب الله على قوم وينايديهم، فكيف يمكن ان يكونوا هالكين من قبل؟! وفى الحقيقة كما يقول آرثور جفرى فكلمة «بور» توجد فى العبرية بصورة: בור (= بُور) وفى الآرامية بصورة: ܒܘܪܐ (= بُورَا) ومعناه فى هاتين اللغتين هو «الجاهل» .

معنى كلمة «طاغوت»

قد جاءت هذه الكلمة فى القرآن الكريم غير مرة وقد قال الطبرى فى تفسيره عن الآية 256 من سورة البقره: «اختلف اهل التاويل فى معنى الطاغوت فقال بعضهم هو الشيطان وقال آخرون هو الساحر وقال الاخرون بل هو الكاهن والصواب من القول عندى فى الطاغوت انه كل ذى طغيان على الله» . انه ابدى عن رأيه حول هذه الكلمة فى هذه الآية بصورة كاملة وما اضاف شيئاً فى تفسيرها فى الآيات الأخرى.

و الزمخشرى اعتبر الكلمة إما بمعنى الشيطان وامّا بمعنى الصنم او الشرّ واخيراً فى تفسير الآيه 17 من سورة الزمر يقول: «فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت الّا ان فيها قلباً بتقديم اللام على العين اطلقت على الشيطان او الشياطين» .

وقد قال الراغب الإصفهانى حول هذه الكلمة: «عبارة عن كل متعدّ ولما تقدم سمّى الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً ووزنه فيما قيل فعلوت نحو جبروت وملكوت» .

و يقول العلامة الطباطبائى فى الميزان فى تفسير الآية 256 من سورة البقرة: «كلمة الطاغوت تعنى الطغيان والتجاوز من الحدود ولكنها تبلغ المبالغة فى الطغيان الى حد ما، كالملكوت والجبروت . وملحض كلام المفسرين حول هذه الكلمة هو انها من اصل «طغى» وعلى وزن «فَعَلُوت» ويعبّر عن نوع من المبالغة فى الطغيان الا انّ الآيتين 60 و76 من سورة النساء يبين لنا ان الله سبحانه وتعالى يريد من هذه الكلمة معنى خاص دون معنى عام فلاتشمل الكلمة هذه، انواع الشرور: «يريدون ان ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطانُ أن يضلّهم بعيدا» و«الذين امنو يقاتلون فى سبيل الله والذين كفرو يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان».

ناهيک ان آرثور جفرى قدم بحثا مفصلاً حول هذه الكلمة وبناءًا على اسباب عدة يقول انها بمعنى عبادة الأصنام .

حصاد البحث

اننا لا نريد فى هذه المقالة ان نرفض الأعمال والمحاولات والنشاطات القرآنية التى مارسها النحويون واللغويون والمفسرون المسلمون القدماء منهم والمعاصرون، رفضاً باتاً كما اننا لانرفض منهج معرفة اصل الكلمات والمفردات كل الرفض، بل اننا نقول ان فى كل الكلمات القرآنية لايمكن اللجوء الى هذا المنهج والإستناد الى القياس المنطقى الأرسطى، خاصة حول الكلمات الغامضة بعض الشى. فما نستهدفه فى هذه الورقة هو ان النحاة واللغويين والمفسرين، الى جانب معرفة اللغة والمفردات وعلم الكلام والمنطق والفلسفة والخ كانوا بحاجة ماسة الى علم مهم مفصلى آخر غفل عنه او تجاهله غالبيتهم وهو المعرفة بالأسرة اللغوية للغة العربية والإهتمام لتكامل المفردات التاريخى للغة الضاد بين هذه الساميات وهذا التجاهل او التغافل ادى الى ظهور آراء نحوية غير صحيحة حول الظواهر اللغوية وهذا بدوره اسفر عن فهم خطإ بعض الأحيان من جانب المفسرين حول بعض المفردات القرآنية.

المصادر

- قرآن كريم
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بى تا.
- ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل عالم الكتب بيروت ومكتبة المتنبى قاهرة، دون تاريخ.
- الاسترآبادى، رضى الدين، شرح شافية ابن حاجب، المكتبة التجارية الكبرى، قاهرة، 1358ق.
- بوهاس، جيوم وكولوغلى، التراث اللغوى العربى، دار السلام للطباعة، قاهرة، 2008.
- الجابرى، محمد عابد، تكوين العقل العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة التاسعة، 2006.
- خليل ابن احمد الفراهيدى، ابى عبد الرحمن ، معجم العين، تحقيق الدكتور مهدى المخزومى والدكتور ابراهيم السامرائى، منشورات موسسة الاعلمى للمطبوعات، بيروت، 1988.
- الراغب الاصفهانى، ابى القاسم الحسين بن محمد، المفردات فى غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.
- الزمخشرى، ابو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التاويل، بتحقيق عادل احمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، 1988.
- السويح، محمد عاشور، القياس النحوى بين مدرستى البصرة والكوفة، الدار الجماهيرية، الليبى، مصراتة، 1986.
- ضيف، شوقى، المدارس النحوية، دار المعارف، قاهرة، 1972.
- طباطبايى، محمد حسين، الميزان فى تفسير القرآن، تهران، محمدى، 1362.

- طبرى، ابو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تاويل آى القرآن، بتحقيق الدكتور بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستانى، موسسة الرسالة، بيروت، 1994.
- ولفنسون، اسرائيل، تاريخ اللغات السامية، القاهرة، مطبعة الاعتماد، 1914.
- Bar Bahlul, Hassan. Lexicon Syriacom. Paris. 1886.
- Feyerabend, Karl, Langenscheidt Pocket Dictionary Hebrew – English: to the old testament.
- Jeffery, Arthur, The Foreign Vocabulary of The Qoran, BRILL, Leiden. Boston, 2007.
- Ostler, Nicholas, Empires of the Word: A Language History of The World. London: Harper Collins. 2005.